جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

مراحل النمو الجسمي والنفسي لدى الطفل

" خلال الطفولة المبكرة 3 – 6 سنوات "

الدكتور احمد بنعمو

الرياض

1408 هـ - 1988 م

مراحل النمو الجسمي والنفسي لدى الطفل
«خلال الطفولة المبكرة ٣ - ٦سنوات»

الدكتور أحمد بنعمو(*)

المقدمـــــة :

شهدت السنوات الأخيرة في كثير من أقطار العالم، ومن بينها المغرب، تزايداً في الاهتمام بالطفل، ولعل من بين ما تعنيه هذه «الظاهرة العالمية» هو ان الطفل بعد أن ظل خلال عصور طويلة مهملا ومقصراً في حقه شعر المجتمع الانساني بالحاجة الى الالتفات اليه وايلائه الرعاية التي يستحقها، إذن فهناك اليوم ما يوحي بأن وعياً مستجداً بقضايا الطفولة جاء كنتيجة لدعوات رجال التربية وعلماء النفس في العالم منذ أمد بعيد.

إن هذا الوعي الذي بدأ يتبلور قد تفاوتت فيه المجتمعات من حيث السبق والدرجة والتطور، وهكذا فقد عرفته تلك المجتمعات المتقدمة أولا ثم صار ينتشر في غيرها من

(*) الأستاذ المساعد بكلية الآداب. جامعة فاس. المملكة المغربية.

الدول الأخرى، وتتجلى العناية بالطفل في ضرورة التعرف على مختلف حاجاته ودوافعه ودراسة بيئته وفهمها الفهم الجيد، ولن يتأتى هذا الا بتضافر جهود كثير من الباحثين والمختصين الذين يلتقون حول قضايا الطفل على الرغم من تنوع واختلاف ميادين تخصصاتهم.

وللباحث العربي أن يتساءل في خضم ما ينتشر من كتابات وما يعقد من محاضرات وندوات حول الطفل عن مدى اسهامنا في التعرف على هؤلاء الأطفال الذين يشكلون نسبة عالية في مجتمعاتنا العربية، وكيف لنا ان نفيد من مختلف النظريات والنتائج العملية التي يمكن استخلاصها منها والى أي حد استطعنا أن نُحسِّن من وضع أطفالنا ونجعلهم في وضع لائق ونوفر شروطا تربوية سليمة تساعد على تفتح شخصية هؤلاء الأطفال.

إن هذه الخواطر والتساؤلات هي التي حدت بنا الى امعان التفكير في الكيفية التي ينبغي بها تقديم موضوع مظاهر النمو المختلفة الى مربيات رياض الأطفال، وذلك بتزويدهن بزاد نظري مبسط في غير اسفاف وبدون اخلال بمضمون النظريات النفسية والتربوية وجوهرها، وان حاجة الأمهات والمربيات وكل من له علاقة من قريب أو بعيد بالأطفال ماسة للاطلاع على جوانب النمو الحسية والحركية وكذا بعض المظاهر

الانفعالية والاجتماعية والعقلية وهذا ما يجب التركيز عليه، والاقتصار على مرحلة الطفولة المبكرة.

ومما تجدر الاشارة اليه هو أن علماء النفس يقسمون حياة الانسان الى مراحل مختلفة حسب خصائص النمو التي تميز كل مرحلة وسنتناول ببعض التفصيل خصائص المرحلة التي تهمنا دون غيرها، وما دمنا بصدد فترة معينة فينبغي أن نبدأ بتحديدها، ونبادر بإبداء الملاحظة التالية على التسمية، فلقد اصطلح على اطلاق نعوت مختلفة عليها منها: «مرحلة الحضانة» باعتبار أن الطفل يكون في سن تسمح له ان يذهب الى دور الحضانة، ومنها: «الطفولة المبكرة» بالنظر الى انها تسبق الطفولة المتوسطة والمتأخرة، كما انها تعرف بمرحلة: «ما قبل المدرسة» أي مرحلة رياض الأطفال، أما من حيث تحديد السن فهي تمتد من السنة الثالثة الى السادسة

الا أن مسألة تقسيم المراحل وتحديدها لا ينبغي أن يفهم منها أن هذه التحديدات نهائية وقطعية وانما هي لتسهيل الدراسة والبحث عند المهتمين ليس الاّ، وان مسار النمو متواصل ومتداخل ولا يقبل في الواقع هذه التقطيعات المصطنعة.

إن أهم ما يلاحظ في مرحلة الطفولة المبكرة هذه هو التطور الشديد في النواحي الحركية والانفعالية والاجتماعية والعقلية، فبالنسبة للنمو الجسمي تعتري البدن بعض التغيرات التي تؤدي الى ازدياد النضج، والملاحظ كذلك أن العضلات تسرع في نموها وخاصة العضلات الغليظة ولذلك تصبح قوة التحمل اكثر عند بذل المجهودات العضلية التي تتطلبها حركات الطفل المختلفة والمتزايدة ، كل هذا يصاحب قدرة لا بأس بها من التحكم في الحركات العضلية، ومن جهة أخرى يصبح التنفس أكثر عمقا وبطئاً ذلك أن هناك تطورا في جهاز الطفل التنفسي وفي نبضات قلبه ويميل ضغطه الدموي الى اتخاذ نوع من الثبات التدريجي كذلك فالأسنان المؤقتة تكتمل، وهذه التغيرات التي تحدث لابد أن تعتمد على الجهاز العصبي الذي ينمو ويتطور هو الآخر بسرعة في الحالات العادية، اذاً فهذا النضج في الأعصاب وأنسجتها من شأنه أن يساعد على ازدياد مهارة الطفل في النشاط الحركي الحسي وينبني عليه كثير من انواع التعلم التي تتم من خلال الحركات واللعب، وما أن يتم الطفل العام السادس حتى يكون قد تمكن من السيطرة، الى حد ما، على كثير من القدرات والمهارات الحركية الأساسية والضرورية، فهو يستطيع أن يمشي ويجري ويقفز، ويغذي نفسه بنفسه، ويلبس ويخلع ملابسه، ويشارك

في كثير من الألعاب التي تقتضي تناسقا بين أعضاء الحس المختلفة وبين عضلات الجسم.

وهذا الأمر هو الذي يفسر أن الطفل يكون أكثر مهارة في القيام بالحركات الكبيرة منه في أوجه النشاط التي تتضمن تناسقات وتآزرات دقيقة (صعوبة الكتابة، والامساك بالقلم في بداية تعلم هذه المهارة مثلا)، ويمكن بعد هذا أن ننتقل الى النواحي الانفعالية عند الطفل في هذه المرحلة لنجد أن ما يعنيه الانفعال بصفة عامة هو استثارة العضوية أو حالة الاضطراب الجسمي والنفسي التي تلحق الفرد (الطفل في هذه الحالة هو المقصود) وتنشأ عن هذه الحالة انماط عامة تنمو من تجارب مشتركة بين جميع الأطفال فهناك مثلا عدد من المخاوف عند الأطفال وغيرها من الانفعالات المختلفة.

ولكن علينا الآن أن نتساءل: ما الفرق بين الانفعال عند الكبار وعند الأطفال وخاصة في هذه السن؟

إن ما يثير الانفعال عند الراشد قد لا يثير أي شيء عند الطفل لأنه لا يعني عنده بالضرورة نفس المعنى، ومع ذلك فالرفض الذي تقابل به رغبات الطفل قد يولد فيه مشاعر الغضب قبل أن يتعلم أنه ليس من الممكن أن تلبى جميع الرغبات وعليه ان يقبل الأمر الواقع بضبط انفعالاته شيئا فشيئا.

وإن المواقف المختلفة التي يمر منها الطفل تجعله يعيش أنواع صراع كل يوم سواء في بيته أو خارج بيته، الا أن الانفعال الذي يعتريه داخل الأسرة غالبا ما يكون أشد من ذاك الانفعال خارجها، فاذا كان يبكي ويصيح ويرمي بالأشياء أو يضرب غيره، فإنه سيتلقى استجابات ممن يحيطون به تدل على عدم رضاهم عنه، وبغض النظر عن هذه الاستجابات ووقعها عليه، فلا ينبغي أن تكون على شكل معاملات قد تزيد الطين بلة، فيتمادى ويعاند الى أن يفرض ارادته على ذويه أو مربيه

من هنا. تأتي أهمية الكيفية التي تعالج بها انفعالات الطفل كي لا تبلغ درجة من الحدة أو تقابل بانفعالات أخرى.

ومما هو معروف أن الانفعالات تغني حياة الفرد عموما والطفل خصوصا، لكن عندما يؤدي ذلك الى التحكم فيها ومن الواضح أيضا أن هذا الضبط والتحكم يتأصلان في خبرات انفعالية سواء في استثارتها أو معالجتها منذ هذه المراحل المبكرة عبر المراهقة وصولا الى مرحلة الرشد والنضج الوجداني، ولا ينبغي أن يغيب عنا ما للعواطف والمشاعر الوجدانية من تأثير على هذا الكائن الذي يحتاج الى كثير من الحدب والحب والانتباه والشعور بالاطمئنان، وكل هذا متوقف على الوالدين ومدى عطائهما.

وباختصار .. فإن التوترات الانفعالية والعلاقات غير المستقرة تؤدي الى شعور الطفل بالقلق مما يدفعه الى عدم الاستجابة الانفعالية السليمة، بينما اذا تدرجت أساليب التعبير الانفعالي على نحو عادي يسود فيه الاستقرار الوجداني أمكن للطفل أن يبلغ الاتزان الانفعالي الذي يعتبر كعلامة على النمو السوي لشخصيته.

مظاهر النمو الاجتماعي:

تصلح المظاهر المهمة للسلوك الاجتماعي لتتبع وتقويم شخصية الطفل في تفاعله مع الآخرين خاصة مع أترابه ورفاقه، فيمكن أن نحكم مثلا على طفل بأنه عدواني اذا كان كثير الشجار والهجوم على أقرانه، أو أنه متسلط إذا حاول أن يسيطر ويتحكم في الآخرين أو أنه متكل على غيره اذا كان دائما يبحث عن العون والاعتماد على الغير في المواقف الاجتماعية، وتتأثر الاتجاهات العامة ازاء الأقارب والعالم الواسع بنوع العلاقة المبكرة بين الطفل والوالدين.

ويكتسي الانتقال من الأسرة وحدودها الى الروضة أهميةكبرى في نمو الطفل من الناحية الاجتماعية فما أن يلتحق بروضة الأطفال حتى يدخل في تجربة هامة من حيث اتساع مجال التحرك الاجتماعي، وقد يصاحب هذه الخبرة في البداية

نوع من التوجس من هذا المجتمع الجديد الغريب على الطفل، بعد أن كان ينعم بألفة وتوافق سابقين يوفرهما الوسط المنزلي بكل مافيه من اشباعات يخشى عليها الآن من الضياع علاوة على الألم الذي يسببه فراق البيت والوالدين، ويحتاج الى بعض الوقت حتى يتعود على الأفراد الجدد ويستأنس بهم، ومن هنا يلزم العمل على إزالة ذلك التهيب والرهبة العامة والمشتركة بين الأطفال، وينبغي للوالدين أن يُعدّا طفلهما إعداداً نفسيا باعتباره عاملاً مهما لاجتياز هذه الخبرة العسيرة في نمو الطفل، الا أن الأطفال ـ وكما يحدث في كثير من الأحيان ـ بمجرد اندماجهم في روضة الأطفال تغدو هذه الأخيرة بالنسبة اليهم مركز العالم الذي يحيون فيه خارج نطاق الاسرة نظرا للمدة الزمنية التي يقضونها فيها يومياً.

وتتميز هذه الحياة الاجتماعية الموسعة للطفل باستجابات جديدة تكمل ما بدأه الآباء والأمهات من تدريب وتوجيه، يفسحان المجال لتفتح شخصية الطفل وعمل علاقات بالأتراب.

وخلال هذه المرحلة يقل عدد المشاجرات والصراعات ويسعى الأطفال لعقد صلات ودية فيما بينهم ويتخذون الصديق الأول، ولكن ليس النهائي، وتتغير أنماط الصداقة بتقدم السن، فيزداد عدد الأصدقاء أيضا، مع التقرب والتعلق

بعدد معين منهم، ويلاحظ أن الطفل في تفاعله الاجتماعي يتعرض لتجارب فيها الاشباع وفيها الاحباط، وينتج عن ذلك بالتالي استجابات اجتماعية يبدو عليها التناقض، فأطفال ما قبل المدرسة يميلون الى اللجاج والجدل فيما بينهم اذا كانوا أصدقاء أكثر من أولئك الذين لا تجمع بين أحدهم والآخر أية رابطة.

ويبدأ الطفل في سن الثالثة مثلا في الاستمتاع باللعب الجماعي وابداء الاهتمام بالأطفال الآخرين، وتتدرج المشاركة الاجتماعية مثلها مثل مظاهر النمو الأخرى عبر عدة مراحل، ففي البداية يكتفي الطفل بالنظر الى الأطفال وهم يلعبون، ثم يشرع في اللعب بمحاذاتهم دون تفاعل معهم، وسرعان ما يختلط بهم في اللعب، ومع الوقت يكون على استعداد ليشارك في أي نوع منظم من التعاون والمشاركة التي تقتضيها بعض الألعاب وبحلول السنة الخامسة أو السادسة ينخرط الطفل في عدد كبير من الانشطة والألعاب ويسعى لاحراز الاهتمام والرضى من رفاقه

وفي حوالي الرابعة ـ وهي السن التي يفضل معظم الأطفال فيها اللعب في مجموعات صغيرة ـ تبدأ بعض الترتيبات الاجتماعية في التشكل، وتظهر بوادر الزعامة بين الأطفال والتي غالبا ما تعتمد على القوة الجسمية أحيانا وعلى القدرة

الحقيقية على منح التشجيع والانتباه الى الآخرين من أجل غاية مشتركة.

هذا وتتفق كثير من البحوث على أن الصغار يفادون من الانتظام في مدارس الحضانة، وأن أبرز ما يترتب على ذلك من نتائج هو ازدياد حظ الطفل من الاجتماعية والتعبير عن الذات والاستقلال والمبادرة والتوافق الاجتماعي والاهتمام بالبيئة والشغف بها[1].

النمو العقلي في الطفولة المبكرة (٣ - ٦):

بعد سن الثانية يظهر التفكير الذي يعرف بما قبل الاجراني والذي يأتي بعد التفكير الحسي - الحركي (صفر - ٢) ويتضمن هذا الأخير حدا أدنى من النشاط الرمزي، ذلك أن الطفل يتعلم افعالا معينة لها تأثيرات خاصة في البيئة أما في مرحلة التفكير ما قبل الاجراني فيستطيع الطفل ان يتصور الحركات دون ان ينجزها، انها مرحلة «التظاهر» التي يستمر فيها التفكير الحسي - الحركي بموازاة الفاعلية الرمزية، خاصة عند الاستغراق في اللعب الرمزي، وبفضل هذه الوظيفة

---

١ - سيكولوجية الطفولة والشخصية. تأليف ج. كونجر، بول مونس، وجيروم كيجان. دار النهضة العربية. القاهرة: ص: ٤٢٠.

الرمزية يصبح اكتساب اللغة ممكنا واستخدامها متيسرا، ولكن الطفل مع ذلك يظل متقوقعا في أنويته Egocentrisme وينتقل من الخاص الى الخاص ولا يقدر على تحصيل المفاهيم بعد، ثم إن النمو اللغوي الذي يحدث بشكل سريع يعد مظهرا من مظاهر النمو العقلي، ومن الملاحظ أن الارتباط وثيق بين نمو الكلام ونمو الذكاء بصفة عامة، ذلك أن اللغة أساسية في القيام بمختلف العمليات العقلية، وتتميز هذه المرحلة بظهور الجمل الطويلة واستخدامها وتنوع الكلمات والمسميات التي تطلق على الأشياء والوقائع، ولكن بالرغم من التطور الحاصل لدى الطفل بفضل ظهور اللغة واتساع مجال مدركاته بواسطتها الا أن تفكيره في السنة الرابعة مثلا يبقى تفكيراً حدسيا، ويظل غير قادر على استخدام البراهين في اثبات وجهة نظره رغم ملاحظته المضبوطة للواقع ولكن منطقه يظل مرتبطا بالادراك الحدسي لأنه لم يكتسب بعد الفكر المنطقي المجرد.

ومن خصائص هذا التفكير الحدسي أنه يقوم على أحكام مباشرة وآنية لأن الطفل في هذه المرحلة تعوزه قابلية الانعكاس التي تنظم بناءاته الفكرية، ومن هنا. فالطابع الذي يغلب على ذكائه هو الطابع العملي الذي يلعب دورا رئيسيا في هذه المرحلة باعتبار أنه يعمل على تمديد الذكاء الحسي ـ الحركي من جهة، والاعداد لتكوين المفاهيم من جهة ثانية.

ومن خصائصه أيضا. أن استنتاجات الطفل تقوم على ما يشعر به وعلى ما يميل الى الاعتقاد فيه أو على الجوانب الادراكية الحسية الظاهرة في أي مثير من المثيرات.

وفيما يخص مفهوم الزمن، كما يرى بول موسن، فهو لا يعني عند طفل هذه المرحلة الا معنى ضعيفا، فالأحداث التي وقعت في الأسبوع الماضي ينظر اليها على انها كانت في الماضي السحيق، كما أن المستقبل لا يعني شيئا حقيقيا عند الطفل، وبشكل مبدئي فإن إحساس الطفل بالزمن إحساس عياني مشخص ومرتبط بسلوكه الروتيني الخاص بأوقات أكله ونومه واستيقاظه، وكما يرى بعض علماء النفس فإن أكثر حياة الطفل مستغرقة في الحاضر مع قلة اهتمام بأبعاد الماضي والمستقبل، لذلك فإدراك الطفل لا يتعدى مدى زمنيا محدوداً مما يؤدي الى نفاد الصبر في حالة الانتظار والاستعجال في إشباع الرغبات.

المراجـــع

أولا: المراجع العربية:

١ ـ سيكولوجية الطفولة والشخصية جون كونجر، وبول موس، وجيروم كيجان. ترجمة: الدكتور أحمد عبدالعزيز سلامة، والدكتور جابر عبدالحميد جابر دارالنهضة العربية القاهرة.

٢ ـ النمو النفسي. عبدالمنعم المليجي، وحلمي المليجي. دار النهضة العربية للطباعة والنشر الطبعة الخامسة. بيروت: ١٩٧٣م.

٣ ـ تطور نمو الأطفال. تأليف: ويلارد أولسون. ترجمة: الدكتور ابراهيم حافظ، ومحمد عتمان، وسامي علي الجمال. عالم الكتب. القاهرة: ١٩٦٢م.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1- René Zazzo: Conduites et Consciences I Psychologie de l'enfant et Méthode génétique. Actualités Péagogiques et Psychologiques Delachaux et Niestlé, 1968.

2 Paul H. Mussen: The Paychological Development of the Child Prentice-Hall, Inc. Englewood Cliffs, New Jersey, 1963.